الأفعال الكلامية والأفعال الحجاجية

في خطبة حج الوداع للرسول صلى الله عليه وسلم

د. سعاد شابي
قسم اللغة والأدب العربي
جامعة أحمد دراية، أدرار

الملخص:

تطورت الدراسات اللسانية من الاهتمام بالجملة كوحدة كبرى مع العالم السويسري دوسوسير وأتباعه إلى الاهتمام بوحدات أكبر من الجمل هي البحث في العلاقات التي تربط بين عناصر النص من قبل العالم هاريس وبنفنست وتشومسكي وغيرهم.... ليخرج الاهتمام من رهن النص إلى دراسة الفعل الخطابي وربطه بقائليه ومحيطه وظروف إنتاجه، فتعدت بذلك الخطاب إلى خارجه، فنشأ المنهج التداولي.

Resumé :

Études linguistiques ont évolué à partir intérêt gros grande comme une unité avec le monde suisse De Saussure et ses disciples de faire attention aux plus grandes unités du chameau est d'examiner les relations entre les éléments du texte par le monde Harris Benveniste et Chomsky et d'autres .... à sortir intérêt à partir du texte hypothécaire pour étudier l'acte de rhétorique et de relier a ses locuteurs et ses environs et des circonstances de sa production , et empiéte la parole à l'extérieur , et crée l'approche pragmatique .

تطورت الدراسات اللسانية من الاهتمام بالجملة كوحدة كبرى مع العالم السويسري دوسوسير وأتباعه إلى الاهتمام بوحدات أكبر من الجمل هي البحث في العلاقات التي تربط بين عناصر النص من قبل العالم هاريس وبنفنست وتشومسكي وغيرهم.... ليخرج الاهتمام من رهن النص إلى دراسة الفعل الخطابي وربطه بقائليه ومحيطه وظروف إنتاجه، فتعدت بذلك الخطاب إلى خارجه، فنشأ المنهج التداولي.

التداولية/المنهج التداولي مفاهيم:

الدراسة التداولية هي: "أحد أهم المناهج اللغوية الحديثة التي صححت مسار علم اللغة الحديث، متداركة بذلك العديد من نقائصه، وتنطلق التداولية من أن الوقوف بالدراسة اللسانية عند حدود بنية اللغة لا يمكن من فهمها والوقوف على أكبر قدر من حقائقها، لذلك تدعو إلى ضرورة أن تشمل الدراسة وظيفتها أيضا، وهو ما يعني

الدعوة إلى دراسة اللغة في الاستعمال أي دراستها وهي تؤدي وظيفتها التواصلية"(1)

وبالتالي فالتداولية تعنى بالنص الخطابي ضمن سياقه وهو يؤدي دوره التواصلي جامعا بين قطبي العملية التواصلية المبدع والمتلقي.

والمنهج التداولي يأخذ:" بعين الاعتبار كل العوامل التي يمكن أن يكون لها دور في أثناء استعمال اللغة، بما في ذلك العوامل النفسية والاجتماعية والثقافية وغيرها"(2)

تعددت التسميات العربية المقابلة للمصطلح الأجنبي Pragmatics من براغماتيك، نفعية، ذرائعية، ومصطلح تداولية الذي استخدمه أول مرة الدكتور طه عبد الرحمن(3) وآخرون كأحمد المتوكل والجلالي دلاش وغيرهم....

والحق أن طه عبد الرحمن استعمل مصطلح تداوليات وقد وضح سبب اختياره له في قوله:" وقد وقع اختيارنا منذ 1970م على مصطلح التداوليات مقابلا للمصطلح الغربي براغماتيك لأنه يوفي المطلوب حقه باعتبار دلالته على معنيين الاستعمال والتفاعل معا"(4)

وتعددت تعريفات التداولية ومن هذه التعريفات أنها:

_" دراسة كل جوانب المعنى التي تهملها النظريات الدلالية، فإن اقتصر علم الدلالة على دراسة الأقوال التي تنطبق عليها شروط الصدق Truth condition فإن التداولية تعنى بما وراء ذلك مما لا تنطبق عليه هذه الشروط"(5)

_"محاولة الإجابة عن أسئلة: ماذا نصنع حين نتكلم؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ لماذا نطلب من جارنا حول المائدة أن يمدنا بكذا؟ بينما يظهر واضحا أن في إمكانه ذلك، فمن يتكلم إذن؟ وإلى من يتكلم؟ من يتكلم مع من؟ من يتكلم ولأجل من؟ كيف يمكننا قول شيء آخر غير ما كنا نريد قوله؟"(6)

_ هي: "علم جديد للتواصل يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال ويدمج من ثم مشاريع معرفية متعددة في ظاهرة التواصل اللغوي وتفسيره"(7)

_ هي: "تخصص لساني يدرس كيفية استخدام الناس للأدلة اللغوية في صلب أحاديثهم وخطاباتهم كما يعنى من جهة أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث"(8)

_ هي:" ...دراسة جوانب السياق...ولعل أوجز تعريف لها انطلاقا من علاقتها بالسياق هي دراسة اللغة في الاستعمال in use أو في التواصل in interaction "(9) وبالتالي فإن التعريفات السابقة كلها تدور حول فكرة أن التداولية تدرس اللغة في الاستعمال، شاملة بذلك عناصر عملية التواصل المتمثلة في المتكلم والمستمع وقناة التواصل، بما فيها المقام والسياق الذي أولته التداولية أهمية كبيرة في الدراسة، إذ أن عناصر اللغة لا تتضح ولا تتحدد معانيها إلا في إطار السياق، وبالتالي فدراسة اللغة وعلاقتها بمستعمليها في سياق معين هو من اختصاص التداولية.

التداول/التواصل/المقصدية:

التداولية تدرس اللغة في إطار الاستعمال وليس خارجه، وبالتالي تكون:" جامعا بين جانبين اثنين هما: التواصل والتفاعل"(10)

إن هذا التفاعل ينتج من استعمال اللغة في سياق معين والذي يتجسد من خلال ما يلي: (11)

_ معتقدات المتكلم ومقاصده وشخصيته وتكوينه الثقافي ومن يشارك تفعيل الحدث اللغوي.

_ الوقائع الخارجية (الظروف الزمكانية، والظواهر الاجتماعية المرتبطة باللغة).

_ المعرفة المشتركة بين المتخاطبين وأثر النص الكلامي فيهم.

ومن حيث التواصل، فالتداولية تهتم بدراسة:" التواصل اللغوي داخل الخطابات والبحث في طبيعة العلاقة بين الأقوال الخطابية والأفعال الاجتماعية ومن ثم التعامل مع الخطاب الإبداعي بوصفه تعبير عن تواصل معرفي اجتماعي في سياق ثقافي، فهي علم يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال وهي تعتبر مجالا جديدا في حقل الدراسات الإنسانية وليس مجال اللسانيات فقط"(12)

إن المتكلم متى تكلم إلا وله مقصد من وراء كلامه مريدا بذلك توضيحه، فإن:" القصدية ترتبط بالمخاطب أو الطرف المستمع لا بوصفه طرفا منتجا أساسيا بل لكونه معتبرا في العملية التواصلية لأننا عندما نتكلم لا ننظر إلى الآخرين باعتبارهم طرفا مستهلكا سلبيا بل طرفا فاعلا، كما إننا إذ نفعل ذلك فإنما نتكلم عبرهم ومن خلالهم"(13)

أولت البلاغة العربية القديمة المتكلم دورا بارزا بوصفه:" منتج الخطاب وباعثه ولأنه وحده الذي يستطيع تحديد الدلالات ومقاصدها، بل أن المعنى في كثير من الحالات مرتبط بما ينويه وما يقصده..." (14)

ولتحقيق المتكلم لمقصديته لابد له من مراعاة المعاني وكيفية نقلها ومراعاة مستويات المستمعين، إذ: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار السامعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"(15)

فتبليغ السامع القصد وتمرير الرسالة هي وظيفة المتكلم الساعي إلى إظهار الخفي وتوضيحه بكل ما أوتي من فصاحة وبلاغة لتحقيق الفهم، إذ: "أنها تنتهي إلى قلب السامع فيفهمه"(16)

بمعنى أن الخطاب يحمل دلالة ومقصدية لابد من أن يستوعبها المتلقي حتى تحصل الفائدة المتداولة.

الأفعال الكلامية:

الأفعال الكلامية هي موضوع من موضوعات التداولية، والفعل الكلامي يعني: ".. كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي، دلالي، إنجازي وتأثيري وفضلا عن ذلك يعد نشاطا ماديا نحويا يتوسل أفعال قولية Actes locutoires لتحقيق أغراض إنجازية Actes illocutoires تخص ردود فعل المتلقي (كالرفض والقبول) ومن ثم فهو فعل يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المخاطب اجتماعيا ومؤسساتيا ومن ثم إنجاز شيء ما"(17)

في موضوع الأفعال الكلامية ينظر إلى اللغة على أنها: "أداء أعمال مختلفة في آن واحد، وما القول إلا واحد منها، فعندما يتحدث المتكلم فإنه في الواقع يخبر عن شيء أو يصرح تصريحا ما أو يأمر أو ينهى أو يلتمس أو يعد أو يشكر"(18)

فاللغة: "ليست أداة أو وسيلة للتخاطب والتفاهم والتواصل فحسب، وإنما اللغة وسيلتنا للتأثير في العالم وتغيير السلوك الإنساني من خلال مواقف"(19)

وبالتالي فإن اللغة قبل كل شيء لا تتجلى إلا أثناء الكلام، ولا سبيل إلى معرفة طبيعتها إلا بالتحول بها إلى دراستها، وتشكل مادة الإبداع قناة توصيلها للجمهور منطوقة كانت أو مكتوبة ولكل منهما وسائلها الإغرائية والتأثيرية في توجيه العملية الإبداعية.

أنواع أفعال الكلام:

قسم أوستين أفعال الكلام إلى الأنواع التالية:

أ_ فعل القول (الفعل اللغوي) Acte locutoire

ويعني: "إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات بناء نحوي سليم وذات دلالة"(20)

يشمل فعل القول على مستويات لسانية التي يسميها أوستين أفعالا: (الفعل الصوتي، الفعل التركيبي والفعل الدلالي، فالأول هو التلفظ بسلسلة من الأصوات التي تنتمي إلى نفس اللغة، أما الثاني فيقوم على تأليف المفردات طبقا لقواعد لغة معينة، أما الثالث فهو عبارة عن توظيف هذه الأفعال حسب معان محددة كقولك: إنها ستمطر، فالسامع يمكن أن يفهم معنى الجملة ومع ذلك لا يدري هل هذا إخبار بأنها ستمطر أم تحذير من عواقب الخروج) (21)

ب_ الفعل المضمن في القول: Acte illocutoire

وهو الفعل الإنجازي الحقيقي إذ: "إنه عمل ينجز بقول ما"(22)

وهو الصنف المقصود من نظرية الأفعال الكلامية، ويسمي أوستين الوظائف اللسانية الثانوية خلف هذه الأفعال: القوى الإنجازية، ومن أمثلة ذلك السؤال، إجابة السؤال إصدار تأكيد أو تحذير، وعد، أمر.... إلخ

ج_ الفعل الناتج عن القول: Acte perlocutoire

يرى أوستين الفاعل (الشخص المتكلم) مع القيام بفعل القول، وما يصحبه من فعل متضمن في القول قائما بفعل ثالث:" يتمثل في التسبب في نشوء آثار في المشاعر والفكر ومن أمثلة تلك الآثار: الإقناع، الإرشاد، التضليل، التثبيط"(23)

ويرى أوستين أن الفعل الكلامي ثلاثة خصائص (24):

_ إنه فعل دال.

_ إنه فعل إنجازي (أي ينجز الأشياء والأفعال الاجتماعية بالكلمات).

_ إنه فعل تأثيري (أي يترك آثارا معينة في الواقع خصوصا إذا كان فعلا ناجحا).

وطبعا تلك الأنواع الثلاث التي ذكرناها آنفا (فعل القول، فعل مضمن في القول والفعل الناتج عن القول) قسمها أوستين أيضا في النوعين الآتين: أفعال تقريرية وأفعال إنشائية وسنفصل فيها في مبحث التطبيق.

الأفعال الحجاجية:

الحجاج: "عبارة عن تصور معين لقراءة الواقع اعتمادا على بعض المعطيات الخاصة بكل من المحاجج والمقام الذي ينجب هذا الخطاب"(25)

كما نجد أن:" ...الحجاج أو التدليل يشيران إلى ذلك الخطاب الصريح أو الضمني الذي يستهدف الإقناع والإفحام معا، مهما كان متلقي هذا الخطاب، ومهما كانت الطريقة المتبعة في ذلك"(26)، وهناك من يقول:" الخطاب الحجاجي موجه للتأثير على آراء وسلوكات المخاطب أو المستمع وذلك بجعل أي قول مدعم صالحا أو مقبولا. وذلك بمختلف الوسائل بالنظر لقول آخر (الحجة، المعطاة، الأسباب)، وعلى سبيل التعريف نقول أن المعطاة –الحجة تهدف إلى إثبات أو نقض قضية"(27)

والحجاج عند طه عبد الرحمان:".. كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها"(28)

وبالتالي ومن خلال ما عرضناه فإن الحجاج هو تقديم الحجج والأدلة، وهو مجموعة من الأفعال القولية التي يدعم بها المتكلم قوله.

وأهم هدف تسعى الأفعال الحجاجية إليه هو التأثير والإقناع، إذ:" يتمثل هدف الحجاج التأثير في الجمهور، والمعيار الأول الذي نقيس به خطابا ما هو نجاعته، بيد أنه ليس معيارا كافيا لأننا لا يمكن أن نهمل نوعية الجمهور الذي يوجه الخطاب إليه، إننا نستطيع التمييز بين خطابات رجل السياسة والمحامي والعالم والمفكر والمتكلم (نسبة إلى علم الكلام) والفيلسوف، لا فقط بمواضعها بل نميزها أيضا وخاصة بالجمهور الذي تتوجه إليه تلك الخطابات، وبحسب التقنيات المستعملة فلإقناع سامع مخصوص تستعمل آليات لا تصلح لإقناع جمهور كوني ويتم الحجاج بالعقلاني لكونه قادرا على إقناع جمهور كوني"(29)

من خلال هذا نفهم أنه لكل مقام مقال بمعنى أنه كل متكلم يستعمل الأفعال الحجاجية المناسبة بحسب ثقافته من جهة وبمراعاة ثقافة المستمعين من جهة أخرى حتى يحصل الإقناع إيجابا.

إذ أن المرسل يستخدم أفعالا يحاول التأثير بها على المرسل إليه للقيام بإنجاز فعل ما، هذه الأفعال تسمى بالأفعال التوجيهية، وبالتالي فالحجاج عملية استراتيجية من جهة وهو نص منتج لمقاصد محددة في ظروف مقامية معينة من جهة أخرى.

خطبة حجة الوداع للرسول صلى الله عليه وسلم:

خطبة حجة الوداع هي لقاء، توصية ووداع في نفس الوقت، هي خطاب للبشرية جمعاء، ألقاها الرسول صلى الله عليه وسلم يوم عرفة في السنة العاشرة للهجرة، مؤكدا للمسلمين أنه:" اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا".

هذا الخطاب النبوي تطرق فيه الرسول لمواضيع شتى في عبارات متناسقة، هي موضوعات دنيوية وآخروية، تنوعت بين (حرمة الدماء، أداء الأمانة، تحريم الربا، الحذر من الشيطان، معاملة المرأة، التآخي بين المؤمنين، التمسك بدين الله وحده وبسنة رسوله الكريم، موضوع الميراث.....)، هي موضوعات متنوعة وكل موضوع يختلف عن الآخر.

ومن أسس الخطبة الإقناع، فهي:" قياس مركب من مقدمات مظنونة من شخص معتقد فيه، والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم"(30)

ومن أسسها أيضا المشافهة والمباشرة، فالخطيب يلقي خطبته وعلى السامع التركيز في استماعه له وتلقيه لمحتواها، إذ ليس له إمكانية إعادة سماعها أو قراءتها في ذلك الوقت (31) كما في النصوص المكتوبة كالرسائل مثلا:(والبلاغة في الجميع والعي فيها قريب من قريب، إلا أن الخطابة لما كانت مسموعة من قائلها ومأخوذة من لفظ مؤلفها وكان الناس جميعا يرمقونه ويتصفحون وجهه كان الخطأ فيها غير مأمون والحصر فيها عند القيام بها مخوفا محذورا. فأما الرسائل فالإنسان في فسحة من تمكينها وتكرر النظر فيها وإصلاح خلل إن وقع في شيء منها) (33)

ومن أسسها أيضا اعتماد الحجة والدليل بهدف الإقناع والتأثير.

والخطبة خطاب لغوي موجه من مخاطِب إلى مخاطَبين، وقد تعددت مفاهيم الخطاب، فهو:" قبل كل شيء فكرة_ أو معرفة_ منظمة في هيئة بنية وفق معايير معترف بها داخل مجتمع وثقافته مخصوصين وهذه البنية هي التي تعطي الخطاب خصوصيته وتميزه عن كل الكتابات التي تتصارع معه داخل الفضاء المعرفي"(34)

والخطاب: "أعم من الجملة في حين تكون الجملة وحدته الأساسية...فهو وعاء يستوعب الجمل ويتضمنها بحسب إجراءات"(35)

والخطاب عند هاريس: "يتكون من وحدة لغوية قوامها سلسلة من الجمل"(36)

ومن بين المصطلحات التي أحدثت تضاربا في آراء الدارسين والتي اختلط مفهومها بمفهوم الخطاب هو النص.

فهناك من رادف بينهما، فعبد المالك مرتاض في تعريفه النص يقول إنه: "شبكة من المعطيات اللسانية والبنيوية والإيديولوجية تتظافر فيما بينها لتكون خطابا"(37)

وللخطاب أنواع فمنه: "ما يتعلق بفرض الخطاب كالخطاب السردي أو الخطاب الوصفي أو الحجاجي...وغيرها، ومنها ما يرتبط بنوع المشاركة كأن يكون حوارا، أو مجرد مونولوج (خطاب لا يوجهه المتكلم لغير نفسه)، وأخرى تتعلق بطريقة المشاركة مباشرة كانت أو غير مباشرة إلى جانب نوع آخر للخطاب يتعلق بنوع قناة تمريره كأن يكون شفويا أو مكتوبا أو غير ذلك من الأنماط"(38)

فسارة ميلز قدمت مجموعة من آراء الدارسين في الخطاب، تقول أن الخطاب يدل: "بالنسبة للعديد من الباحثين في مجال الألسنية العامة على التحول من اعتبار الجمل أمثلة على الاستعمال اللغوي المجرد usage أي اعتبارها نماذج على الطريقة التي تبنى بها اللغة كنظام إلى الاهتمام بالاستعمال الفعلي للغة use ..وبالنسبة للبعض من هؤلاء المنظرين تعني كلمة الخطاب اهتماما بطول النص أو العبارة، لذا فإن الخطاب عبارة عن وحدة نص مطولة تحتوي على شكل من أشكال التنظيم الداخلي كالانسجام في المعنى cohérence والتماسك في القالب cohésion ...أما بالنسبة للبعض الآخر من المختصين في الألسنية العامة فيعرف الخطاب بالسياق الذي تستعمل فيه بعض العبارات دون سواها، فهناك الخطاب الديني وخطاب الإشهار وما إلى ذلك، وتحدد هذه السياقات المكونات الداخلية للنصوص التي ترد فيها"(39)

يحمل هذا الخطاب مجموعة من المقاصد والتي دفعت بالرسول إلى هذه الخطبة من خلال استراتيجيات الرسول في الوصول إلى إقناع المسلمين، حيث: "يرتكز دور المقاصد بوجه عام على بلورة المعنى كما هو عند المرسل إذ يستلزم منه مراعاة كيفية التعبير عن قصده وانتخاب الاستراتيجية التي تتكفل بنقله مع مراعاة العناصر السياقية الأخرى"(40)

ولذلك فإن هذه الخطبة مبنية على عوامل عبر عنها الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال:

_ عامل وحدانية الله

_ عامل الوصية: في قول رسول الله: "أيها الناس إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث...."

_ عامل المرأة: في قول رسول الله: "أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حقا...."

_ عامل الوداع: في قوله: أما بعد، أيها الناس اسمعوا فيما أبين لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا...."، لذا حثهم على كل ما ينفعهم في الدار الآخرة وينجيهم من العذاب:(قضاء حوائج الناس، الأمانة، تحريم الدماء والأموال، أداء الأمانة...) وهي أحكام شرعية.

الأفعال الكلامية في الخطبة:

أخذنا في هذا التطبيق بتقسيم "أوستين" الذي قسم الأفعال الإنجازية إلى أقوال تقريرية، وأقوال إنشائية.

أ –الأقوال التقريرية:

وهي عند العرب الأساليب الخبرية وهي عبارة عن الأقوال التي تحتمل الصدق أو الكذب، أي تستطيع الحكم عليها بالصدق إن طابقت نسبة الكلام فيها الواقع، وبالكذب إن لم تطابق نسبة الكلام فيها الواقع، ومنها:

الأقوال الدالة على الثبات: ومثال ذلك قوله ص: "الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له"، هي أقوال تقريرية إخبارية مثبتة كاستفتاح من أجل تهيئة المخاطَبين لقبول الفكرة التي تتضمنها الخطبة.

وقوله صلى الله عليه وسلم: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله"، تقرير بالشهادة بوحدانية الله وبأنه رسول الله.

هي أقوال صادقة صادرة من الرسول الكريم، الذي لا شك في مصداقية إيمانه بالله الواحد الأوحد، الهادي الأمين الذي حمله الله آخر رسالاته إلى البشرية جمعاء.

-الأفعال الإخبارية: في قول رسول الله: "إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا..."، هي إخبار المسلمين أن زماننا هذا يختلف عن زمن خلق الله السموات والأرض.

-الأفعال الدالة على الحكم: في قوله عليه الصلاة والسلام: "إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم.."، بعد التأكيد على وحدانية الله وأن أب البشرية واحد وكلهم من آدم، يصدر الرسول حكما يتمثل أن الناس إنما تختلف منزلتهم حسب تقوى الله، لتحميسهم وإقناعهم بتقوى المولى عز وجل.

ب – الأقوال الإنشائية:

هي أقوال لا تصف، ولا تخبر، ولا تمثل، ولا تخضع لمعيار الصدق أو الكذب، أي أن ميزتها الأساسية أن التلفظ بها يساوي تحقيق فعل في الواقع، وقد صنفها سيرل إلى أفعال كلامية مباشرة، وأفعال كلامية غير مباشرة.

1-الأفعال الكلامية المباشرة:

هي عبارة عن الأقوال التي تدل صيغتها على ما تدل عليه هذه الأقوال، أي الصيغة تساوي المحتوى، وهي في الخطبة:

-الأقوال الناهية: في قول رسول الله: "لا تظلمون ولا تظلمون"، وفيها نهي عن فعل الظلم.

-الأقوال الأمرية: ومثال ذلك في قول الرسول: "اتقوا الله في النساء"، وقوله: "استوصوا بالنساء خيرا"، وقوله: "اسمعوا قولي واعقلوه"، فهي أوامر موجهة للمسلمين الغرض منها الاقناع لقبول الوصايا.

-أفعال العرض: وتستعمل للإقناع من أمر ونفي واستفهام ووصف وإخبار و...

فالأمر: أحثكم

النداء: أيها الناس

الاستفهام: ألا هل بلغت؟

التوكيد: إن ربكم واحد وإن أباكم واحد

وهذه الأقوال الغرض منها التأثير في المتلقين وإقناعهم.

2 -الأفعال الكلامية غير المباشرة:

وهي عبارة عن تلك الأقوال التي لا تدل صيغتها على ما تدل عليه.

يتمثل في النص في الاستفهام الإنكاري، في قوله صلى الله عليه وسلم: "ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد"، لأنه استفهام الغرض منه الإثبات وكأنه قال (اللهم قد بلغت)، وأمر الغرض منه الدعاء.

-التشويق: طبعا هو تشويق للقاء الله والفوز بالدار الآخرة من خلال وصايا رسول الله المؤمنين بما ينفعهم.

الأفعال الحجاجية في الخطبة:

الرسول صلى الله عليه وسلم سيد البشرية جمعاء، حامل الرسالة الإلهية، ولإقناعه للناس استعمل الرسول أساليب حجاجية إقناعية متنوعة، نذكر:

الحجاج بالنص القرآني: يستدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَ عِدَّةَ الشهور عند اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً﴾، فالرسول عليه الصلاة والسلام يخاب المسلمين وخير دليل وحجة لإقناعهم هي القرآن الكريم.

الحجاج بالواقع الزمني ذلك أن رسول الله لا يضمن لقاءه بالمسلمين والناس عامة في حج العام المقبل، في قوله صلى الله عليه وسلم: "اسْمَعُوا منّي أُبَيِّنْ لَكُمْ، فَإِنِّيَ لاَ أَدْرِي، لعَلِيّ لاَ أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامي هَذَا، في مَوْقِفي هذا".

الحجاج بالصورة البيانية، وهذا النوع ذكره علماؤنا: "واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة وكسبها منقبة ورفع من أقدارها وشب من نارها وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها واستشار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا"(41)

ومن البيان استخدم الرسول التشبيه، في قوله: "إنّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَليكُمْ حَرَامٌ إلى أنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ، كَحُرمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا في شَهْرِ كُمْ هَذَا في بَلَدِكُم هَذَا"

وقوله: "إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض"

والتشبيه البليغ في قوله: "إنّما المؤمِنُونَ إخْوةٌ"

وهي كلها تشبيهات استعملها الرسول صلى الله عليه وسلم ليزيد من إقناع الناس ليستوصوا بها خيرا، لأن هدف الرسول فيه خير وهو تحصين الناس في الدنيا وفوزهم بالآخرة.

_ ذكر الحجة والنتيجة: في قوله: "مَن يَهْدِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ"، فأتى الرسول بالحجة والنتيجة فمن هداه الله لا يضله أحدا ومن يضله الله فلا يهديه أحدا فالكل بإذن المولى عز وجل، وفي قول رسول الله: "تَرْجِعُنّ بَعْدِي كُفاراً يَضرِبُ بَعْضُكُمْ رقابَ بَعْض فَإنّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إنْ أخَذتمْ بِهِ لَمْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ، كِتَابَ اللهِ وَ سُنَّة نَبيّه"، فضرب الناس بعضهم بعض يكون نتيجة الكفر الذي حذر منه الرسول المسلمين، والأخذ بكتاب الله وسنة رسول الله حجة لعدم الضلالة، فهي قوانين سنها الله لعباده على لسانه رسول البشرية.

_ الحجاج بالنداء وقد كرر الرسول عبارة: "أيها الناس"، وهو لجلب انتباه الناس بغرض إقناعهم فالخطاب موجه لهم.

خاتمة:

خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم دستور للمسلمين تحمل من المعاني ما يصون المسلمين في حياتهم الدنيوية والنيل بالأخروية، جسدها الرسول الكريم عن طريق أفعال كلامية مباشرة وأخرى غير مباشرة هادفا إلى إقناع البشرية بمقاصده المتمثلة في حب الخير لهم بما أوصاهم به، فهي خطاب عام صالح لكل زمان ومكان، واستعان الرسول صلى الله عليه وسلم بأفعال حجاجية استدل بها على ما نصح به المسلمين هو الرسول إلى كل البشرية حامل الرسالة التي فيها خير

للناس وإبعاد لهم عن الشر لذلك كان لزاما التحصن بما يقنعهم ويؤثر فيهم.

ملحق:

نص خطبة حجة الوداع:

قال الرسول صلى الله عليه وسلم:

" الحمدُ لله نحمدُهُ وستعينه، ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَتُوبُ إليه، ونَعُوذُ باللهِ مِنْ شُرورِ أنْفُسِنا ومِنْ سيّآتِ أعْمَالِنَا مَن يَهْدِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ . وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحْده لا شريك له، وأنّ محمداً عبدُه ورسولُه. أوصيكُم عبادَ الله بتقوى الله، وأحثّكم على طاعته! وأستفتح بالذي هو خير. أَمَّا بعد، أيّهَا النّاس، اسْمَعُوا منّي أُبَيّنْ لَكُمْ، فَإنّيَ لاَ أَدْرِي، لعَليّ لاَ أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامي هَذَا، في مَوْقِفي هذا، أَيُهَا النَّاس، إنّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَليكُمْ حَرَامٌ إلى أنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ، كَحُرمَةِ يَوْمِكُم هَذَا في شَهْرِ كُمْ هَذَا في بَلَدِكُم هَذَا وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت ، فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانةٌ فليؤُدّها إلى مَنْ ائْتمَنَهُ عَلَيها، وإن كل ربا موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، و قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا عمي العباس بن عبد المطلب موضوع كله وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع وإن أول دمائكم أضع دم عامر ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية والعمد قَوَدٌ ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن ازداد فهو من الجاهلية. أما بعد أيها الناس فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به بما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم أيها الناس ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض و﴿ إِنَ عِدَّةَ الشهور عند اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً ﴾ منها أربعة حرم ثلاثة متوالية ورجب مضر ، الذي بين جمادى وشعبان. أما بعد أيها الناس ، إن لِنسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حقاً، ولَكُمْ عَلَيْهِنّ حقّ، لَكُمْ عَليّ ألا يُوطِئنَ فُرُشَكُمْ غيرَكم وَلا يُدْخِلْنَ أحَداً تكرَهُونَهُ بيوتَكُمْ، ولا يأتينَ بِفَاحِشَة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاعقلوا أيها الناس قولي ، أَيهَا النّاسُ، إنّما المؤمِنُونَ إخْوةٌ ، فَلاَ يَحِلُّ لامْرِىءٍ مَالُ أَخيهِ إلاّ عَنْ طيبِ نفْسٍ منهُ، أَلاَ هَلْ بلّغْتُ، اللّهُم اشْهَدْ، فلا تَرْجِعُنّ بَعْدِي كُفاراً يَضرِبُ بَعْضُكُمْ رقابَ بَعْض فَإنّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إنْ أخَذتمْ بِهِ لَمْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ، كِتَابَ اللهِ وَ سُنَّة نَبيّه ، أَلاَ هَلْ بلّغتُ، اللّهمّ اشْهَدْ. أيها النّاسُ إن رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وإنّ أَبَاكُمْ واحِدٌ، كُلكُمْ لآدمَ وآدمُ من تُراب، إن أَكرمُكُمْ عندَ اللهِ أتْقَاكُمْ وليس لعربيّ فَضْلٌ على عجميّ إلاّ بالتّقْوىَ، أَلاَ هَلْ بلَّغْتُ، اللّهُمّ اشهد" قَالُوا: نَعَمْ قَال: فلْيُبَلّغِ الشاهدُ الغائبَ والسلامُ عليكم ورحمة الله!".

هوامش الدراسة:

[1] – المناهج اللغوية الحديثة وأثرها في تدريس النصوص بمرحلة التعليم الثانوي شعبة العلوم الإنسانية: الصبيحي محمد الأخضر، مخطوطة أطروحة دكتوراه دولة، جامعة قسنطينة، 2005/2004م، ص91.

2 – المرجع نفسه، ص92.

3 – الأسس الإبستمولوجيا والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، إدريس مقبول، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2006م، ص262.

4 – تجديد المنهج في تقويم التراث: طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، (دت)، ص243-244.

5 – آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، 2006م، ص12.

6 – المقاربة التداولية: فرانسوا أرمينكو، تر: سعيد علوش، مركز الانماء القومي، (دت)، ص7.

7 – ينظر: التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي: مسعود صحراوي، ص16.

8 – مدخل إلى اللسانيات التداولية: الجلالي دلاش، تر: محمد يحياتي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992م، ص1.

9 – آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: محمود أحمد نحلة، مرجع سابق، ص12.

10 – تجديد المنهج في تقويم التراث: طه عبد الرحمن، (مرجع سابق)، ص244.

[11] – دراسات في اللسانيات العربية (بنية الجملة العربية– التراكيب النحوية والتداولية علم النحو وعلم المعاني): عبد الحميد السيد، دار الحامد، ط1، 2004م، ص119.

12– مدخل إلى اللسانيات التداولية: الجلالي دلاش، (مرجع سابق)، ص1.

13 – في تداولية الخطاب الأدبي والإجراء: نواري سعودي أبو زيد، بيت الحكمة، سطيف، الجزائر، ط1، 2009م، ص33.

14 – في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم: خليفة بوجادي، بيت الحكمة، ط2، 2012م، ص133.

15 – البيان والتبيين: الجاحظ، قدمه علي بوملحم، دار مكتبة الهلال، ط2000م، بيروت، لبنان، 81/1.

16 – الصناعتين (الكتابة والشعر): أبو هلال العسكري، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط2، (دت)، ص15.

17 – التداولية عند العلماء العرب: (مرجع سابق)، ص20.

18 – مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب: محمد محمد ويونس علي، دار الكتاب الجديد، بيروت، ص34.

19 – نظرية أفعال الكلام العامة: أوستين، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، ط1991م.

20 – التداولية عند العلماء العرب: مسعود صحراوي، (مرجع سابق)، ص41.

21 – المرجع نفسه، ص45.

22 – المرجع نفسه، ص45.

23 – المرجع نفسه، ص42.

24 – المرجع السابق، ص44.

25 – مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة: محمد سالم ولد محمد الأمين، عالم الفكر، ع2، يناير/مارس، 2000م، ص61.

26 – الحجاج والاستدلال الحجاجي (عناصر استقصاء نظري): حبيب أعراب، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع1، يويو/سبتمبر، 2001م، ص99.

27 – J ,M,adam :les textes,types et prototypes,p 103 .

28 – اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: طه عبد الرحمان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1998م، ص226.

29 – التداولية والحجاج مداخل نصوص: صابر الحباشة، دار صفحات للدراسات والنشر، سوريا، دمشق، ط1، 2008م، ص70.

30 – التعريفات: الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت، 1978م.

31 – طبعا لأنه في وقت لاحق ربما يمكنه الاستعانة بما سجل أو كتب منها

32 – البرهان في علوم القرآن: الزركشي، تحقيق: حفضي محمد شرف، دار الفكر، بيروت، ط2، ص150.

33 – نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال: منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم، ناشرون، الجزائر وبيروت، ط1، 2007م، ص80.

34 – في تأويل النص الأدبي، كافية المتنبي لمدح عضد الدولة أنموذجا تحولات الخطاب النقدي المعاصر: أحمد علي محمد، عالم الكتب الحديث، جدار الكتاب العالمي، الأردن، ط1، 2008م، ص411.

35 – المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب: دومنيك مانغونو، تر: محمد يحياني، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2008م، ص38.

36 – لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة: عبد الفتاح أحمد يوسف، دار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، 2010م، ص182.

37 – تداولية الخطاب المسرحي: لحمادي فاطمة، مقال، الملتقى الدولي الخامس "السيمياء والنص الأدبي"، جامعة تبسة، ص588.

38 – الخطاب: ميلز سارة، تر: يوسف بغول، مطبعة البعث، قسنطينة، ص07.

39 – استراتيجيات الخطاب: عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2004م، ص180.

40 – أسرار البلاغة في علم البيان: عبد القاهر الجرجاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، ص92-93.